

العنوان:	أسباب حدوث الاكتساب ملاحظات حول تعلم العربية
المصدر:	مجلة الدراسات المعجمية - الجمعية المغربية للدراسات المعجمية - المغرب
المؤلف الرئيسي:	باش، يوسف
المجلد/العدد:	7,8ع
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2009
الشهر:	يناير
الصفحات:	307 - 328
رقم MD:	597760
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	اكتساب اللغة، تعلم اللغة العربية، اكتساب المعجم اللغوي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/597760

أسباب حدوث الاكتساب ملاحظات حول تعلّم العربية

ذ. يوسف باش*

كلية الآداب، بني ملال

توزعت نظريات الاكتساب بين عدة مجالات معرفية هي: اللسانيات، والفلسفة، وعلم النفس، والبيولوجيا... إلخ. ولقد ساهمت نظائرها في مجال التواصل، والاتصال، وعلم الحاسوب، في بحث هذه القضية في ضوء مجموعة من الأسئلة الجديدة، سعت إلى خلق برامج للمعالجة، يتدخل فيها المعجم الذهني، والتواصل، والمعرفة، والذكاء. ولأن الاكتساب مسألة تهم اللغة الطبيعية والطفل -الصبي- أولاً، فلقد تفرّعت المعالجات مرة أخرى، إلى مجالات يدخل فيها ما هو لغوي إلى جانب ما هو تربوي، وما هو اجتماعي، إضافة إلى ما هو بيولوجي ووراثي...، ولا سيما أمر تعلّم اللغة الثانية (ل2)، أو اللغة الأجنبية.

ما يهمنا نحن من طرح هذه القضية، هو التساؤل عن مكانة المعجم ضمن ما يكتسبه الطفل من اللغة. وهل هناك مستويات أخرى في النحو قريبة من المعجم، وما هي مواصفاتها؟

* هذه المداخلة في ندوة اكتساب اللغة عن الطفل/ الإدراك والمعرفة المعجمية. تنظيم: كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس-سائيس، 21/22 أبريل 2004.

بلوغ هذه الأهداف، نقترح تنظيماً لعرضنا، يأتي على الشكل التالي:
 في البداية، نقدم بعض الملاحظات حول الاكتساب، في علاقته بالعربية. نَعْقُبُه
 بذكر بعض خصائص المعالجات التي اقترحت لموضوع الاكتساب قديماً وحديثاً. وفي
 الفقرتين المتبقيتين، نعرض لاكتساب المعجم اللغوي من زاوية المعجم الذهني، ومن زاوية
 عوائق التعليم المرتبطة به. ثم نجعل الخاتمة، إثارة للصعوبات التي يدفع إليها هذا الموضوع.

1 - الاكتساب واللغة العربية.

الاكتساب في عمومهِ هو: تحصيل مجهول من معلوم⁽¹⁾، مع ما يقتضيه ذلك من
 تحمّل ومحاولة ومعاناة. وهو: تحصل لمعرفة أساساً، على طريقة تثبيت العادات. وبالنسبة
 لاكتساب اللغة، فيعني بلوغ الذات مرحلة تعلم مواصفات اللسان ونواميس الكلام.
 ورغم أن بعض الباحثين يضعون مراتب له، تبدأ بالتعلّم المباشر، ثم التلقين الفعلي
 في المرتبة الثانية. وفي المرتبة الثالثة، التحصيل المعرفي من حيث هو تحسّس لسنن أنظمة
 اللغة، بهدف ضبط أبنيتها الباطنة، فإن لهذا الموضوع تفرعات عديدة، يصعب ضبطها
 بمراتب نظرية.

ونعني هنا، أن الاكتساب هو علاقة جدلية بين أنظمة متعددة. لعل أَدْنَاهَا اكتساب
 الطفل لغة أمه، مع ما يلفُّ هذا الجانب من إشكالات، تخص طبيعة القوالب اللسانية
 الأولى المكتسبة عنده، وتخص أيضاً قدرته على التخزين، وعلى التصرف.
 كذلك، نصطدم بمشاكل تخص علاقة اللغة 1 باللغة 2 (وضع اللغة العربية في
 البلدان العربية، وفي المغرب). مع علمنا أن العربية الفصيحة ليست لغة أولى، وإنما يتم
 تعلّمها -جزءياً على الأقل- عن طريق التلقين.

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، ص. 115/114.

1-1- الاكتساب والفطرة.

بينت دراسات⁽²⁾، أن الذات المتكلمة التي فطرت على لسان غير لسانها الأصلي، يصعب أن نجد عندها ملكة بنفس مواصفات ملكة المتكلم الأصلي في لغته. وهذا الأمر يبدو بالغ الأهمية، كلما كان هناك "تشويش" العناصر وسمات اللغة الأصلية، على اللغة "المعيار" التي تُتعلّم غالبا وتخضع للتلقين. وكلما طرح موضوع الفصل في معيار الفصاحة، بين الألسن -فصيحة وعامية- التي تتكلمها الذات الواحدة.

إننا، عادة، ما نقبل بوضع تكون فيه "العامية" نازلة في درجة الفصاحة، في مقابل اللغة الرسمية للبلاد -لغة الدين والدستور. وحين نكون أمام أنواع (أشكال) من "العربيات"، فإننا نقول بـ "الفصاحات" عوض الفصاحة الواحدة، أو "الفصيحات" عوض الفصيحة الواحدة⁽³⁾.

اكتساب ملكة اللسان أو "صناعتها" كما تدل عبارة ابن خلدون صراحة (المقدم، ص 460)، تنتقل بين الجودة والقصور بحسب تمام هذه الملكة أو نقصانها. ويكون ذلك، أساسا، في التركيب، وفي التأليف الذي يراعي مقتضى الحال، تعبيرا عن المعاني المقصودة، لا في الإتيان بعناصر اللغة مفردة أو معزولة.

الاكتساب عند ابن خلدون أيضا، يستمر بالتلقين والمران. لكن، في درجة ثانية بعد الطبع والطبيعة. يقول:

"... فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبيهم (...). كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم

(2) ذكر الفاسي الفهري (1986)، في تعرضه لخصائص المادة المعجمية في العربية الفصيحة، أن الطفل العربي يعامل نسقه بالاستناد إلى برامترات قد تعود إلى النسق الكلي، أو الملكة اللغوية العامة. أنظر تفاصيل علاقة اللغة الأصلية باللغة الثانية في ص. 20 وما بعدها.

(3) أنظر الفاسي الفهري (1999)، وأنظر عبد السلام المسدي في كتابه: التفكير اللساني في الحضارة العربية.

يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة".

(ن.م.ص 461)

إن استمرار الملكة باستعمالها بعد التلقين، له نتيجة أخرى. وهي أنه حتى ولو كانت غير طبيعية في الذات المتكلمة، فإنها مرشحة لكي ترسخ، وتظهر كأنها طبيعية وجبلة في محلها⁽⁴⁾.

1-2- اكتساب العربية، بعض الملاحظات.

إن المهم في مسألة الاكتساب والفترة، أن حالة الاكتساب الطبيعية ليست مربوطة بجنس الطفل (أو الصبي موضوع الاكتساب الأول)، وإنما هي مربوطة بنموه وارتقائه في المحيط، وبالتالي نمو أجهزته اللسانية المولدة.

ويستلزم هذا الوضع، بالنسبة للعربية، إبداء بعض الملاحظات ترتبط بالسليقة، والحن، وبالازدواجية⁽⁵⁾. هذه الملاحظات هي التالية:

أولاً، لم يكن العرب، قط، بحاجة إلى تعلم ضوابط لكلامهم، مع أن "العربية الفصيحة" لم تكن سليقة فيهم جميعاً. فلقد كانت هناك لغات اختلفت صوتاً وصرفاً وتركيباً أيضاً.

ثانياً، المتكلمون بالعربية، هم أقدر على استخدام طرائقها بالدربة والمران، لا بالطبع والفترة دائماً. والذي يدل على هذا، أن قبول الاحتجاج بمسألة وقوع اللحن عند العرب - حتى ولو كان محدوداً كما تردد الروايات، ولم يكن بالظاهرة العامة - قد أكد أن العربية

(4) يمكن الاستئناس في هذا الصدد، بملخصات الدراسة التي قام بها ميشال زكريا. انظر كتابه: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، 1985.

(5) في مقاله اكتساب اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد شدد الفاسي الفهري (1999) على سلبات تعلم العربية للنشء، في غياب مناهج واستراتيجيات واضحة، تربط قطاع التعليم بقطاع التربية. نظر حديثه عن السلبات، في ص. 1 وما بعدها.

ليست سليقة عند كل العرب.

ثالثاً، تعطينا الوضعية الحالية لاستعمال العربية حالتين:

كون العربية الفصيحة تغيرت، أو تطورت بفعل العوامل السوسiolسانية، وبفضل تفاعلها الداخلي، على نمط اللغات الأخرى.

وجود لسانين في آن واحد، واحد فصيح والثاني عامي - لهجي، بينهما تداخل على مستوى المعجم، وتكامل على مستوى الوظيفة التعبيرية.

ولقد اقترح للخروج من مشاكل الازدواجية، بدء التفكير في تأهيل العاميات، وخلق لغة وسيطة بين العامية والفصيحة، لتضييق الفارق بينهما. إضافة إلى تشجيع الأبحاث والدراسات في تاريخ اللهجات وتطورها.

2 - الاكتساب بين التأصيل العربي والنظريات الحديثة.

في هذا الجزء، ننظر إلى قضية الاكتساب من زاوية العوامل المحددة له، ومدى ارتباطها بمفاهيم خاصة. على أننا سنفصل، في عرضنا، بين قسمين: الأول، نقف فيه على بعض خلاصات التأطير الذي قام به محمد الأوراعي (اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، سنة 1987). وفي القسم الثاني، نقف على خلاصات أخرى، نستقيها من تشومسكي (1987)، في مقاله "حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة". ثم خلاصات متفرقة، من بعض التحديات الخاصة بمجال علم النفس اللغوي أو السيكلولسانيات⁽⁶⁾.

2-1- خلاصات التأصيل العربي.

كيف يتمكن الطفل من إنجاز اللغة، بالاستناد إلى معرفة مجردة، لكن منتجة؟

(6) بعض هذه التحديات رجعنا فيها إلى عمل سلوين (1939) و(1979). انظر المزيد من التفاصيل، في ص. 100 وما بعدها، في الفصل الرابع الذي خصه لنمو اللغة عند الطفل.

في سبيل الجواب على سؤال قريب من هذا، تعدّدت طروحات المفكرين العرب (لغويين، وفلاسفة، وعلماء كلام، ومناطق، وأصوليين... إلخ). وكانت نصوصهم عميقة النظر، ولكن لم تكن بعيدة على التشخيص المعروف لديهم، الذي يربط بين العلوم الدنيوية والماورائيات، أو بين العلوم العقلية والعلوم النقلية.

إن طروحات المفكرين العرب⁽⁷⁾، في موضوع الاكتساب، سارت في عمومها، في وصف طرق تحصيل المدركات الجزئية. واتجهت، بالنسبة لموضوع اللغة، إلى تغليب تصور وجود حالة استعداد أولى محض، إليها تأخذ العلوم ومبادئها. أي، وجود شروط أولية لمعرفة اللغة، والقدرة على اكتسابها.

في هذا الإطار، بحث محمد الأوراعي (1987)⁽⁸⁾ في إمكان تأطير اشتغالات المفكرين العرب حول موضوع الاكتساب (أو قوى التعلّم)، في أي حقل كان هذا الاشتغال (اللغة، والفلسفة، والأصول، وغيرها...). واقفا على مقتطفات من نصوصهم. لقد أقام الأوراعي ربطاً مفيداً بين إحداث القدرة النحوية وتكوينها في نفس الفرد، وبين مسألة اكتساب اللغة. وقد ظهر هذا في فصل عنوانه بـ: "تعلّق النحو بالملكة العقلية".

في هذا الفصل، نظر الباحث في موضوع نشأة اللغة أو الألسن، أو "ابتداء اللغات وكيفية ظهورها". موضحاً أن الرأي السّاري في الفكر العربي، هو القائل بأن اللسان من الصناعات المستحدثة من قبل الإنسان. وأن الله هو الذي أقدره على هذا العمل، بما قد

(7) ليست هذه الطروحات، في بنيتها الاستيمية، بعيدة عن النقاش الدائر بين المذهب العقلاني والمذهب التجريبي. لكنها، في موضوع العربية، كانت دائماً تنطلق من كونها لغة القرآن أولاً.

(8) انظر كتابه اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ص. 11 وما بعدها. وفي نفس الاتجاه تقريباً، نقرأ تحليلاً مفيداً في المسدي (1986) وهو يعود إلى خلاصات النصوص التي أوكلت أهمية نظيرية - كما يقول - لظاهرة حضور العقل في تحول الجهاز اللغوي... انظر التفاصيل في ص. 180/166.

خلقه فيه من قوى نفسية، وجهازاً مهياً للتشكل. (أي، وجود استعداد قبلي).
صحيح أن الباحث قد ربط الاستعداد المذكور، بالقدرة على تقطيع الصوت،
ضمن مؤهلات جهاز التصويت لدى المتكلم. لكن، كان ذلك منه لإثبات غايتين:
أولاً، تأكيد حصول تناول مفكري العرب، للقدرة النحوية، ضمن التصور
الكسبي، الذي يرى في القدرات المميزة لنوع الإنسان، مجموعة أوليات من خارج
ذاتها⁽⁹⁾.

ثانياً، أن المتكلم في البدء، هو مهياً لإنتاج تصويتات متباينة. وأن هذه التصويتات،
ستعتمد عنده في إقامة القوانين والضوابط.
موضوع نشأة اللغة، لخص مباحث كثيرة ظهرت في نصوص علماء العرب
(لغويين وفلاسفة وأصوليين) تحت عناوين: "اللغة أهي إلهام وتوقيف من الله أم تواضع
واصطلاح"، و"باب القول على أصل اللغة..."، و"في بيان واضع اللغة".
في هذه النقطة، سيعود الباحث إلى نصوص معينة، لعلماء مثل: ابن جني (في
الخصائص)، والسيوطي (في المنزه)، وابن حزم (في الإحكام)، والفراي (في كتاب
الحروف)، والرازي (في المحصول)، وابن سينا (في البرهان، وفي الإشارات والتنبيهات)،
والقاضي عبد الجبار (في المغني)... إلخ.

2-1-1-1-2- فرضية إنسان ما قبل اللسان.

ذكرنا أعلاه، أن الأوراعي قد أكد حصول تناول مفكري العرب، لموضوع
الاكتساب، ضمن التصور الكسبي المقابل للتصور الطبيعي العقلاني، واقفاً على نصوص
معينة تفيد ذلك.

ونشير هنا، أن التصور الذي يشير إليه الباحث بـ: "الكسبي"، ليس بعيداً عن
مجموع النقاشات التي دارت لمدي سنوات عديدة، بين النظرية الفطرية والنظرية التجريبية،

(9) محمد الأوراعي (1987)، ص. 131 وما بعدها.

في تحديد أصل القدرات عند الإنسان، وأشكال نموها.

يتعلق الأمر، بالاتجاه الذي سارت فيه النظريات والأبحاث، مما يمكن عده مدعماً لطرح "الكلية" (Universality)، ووجود "الفطرة"، أو "الجبلة" (وهو بالضبط ما يراد به من وجود العوامل البيولوجية لتطور هذه القدرات، وضمنها اللغة)، في مقابل اتجاه غير عقلاني، هو الاتجاه التجريبي.

لقد تناولت الأوراعي هذا الموضوع، ليس من زاوية وجود قوى، هي أساساً من نمط نسق الأوليات والمبادئ المطبوعة في الدماغ (حيزها الدماغ). بل، من زاوية وجود استعداد في النفس فقط. في حين المبادئ والأوليات هي في خارج النفس، وإليها تنتقل. وهذا بالضبط ما يوافق عنده الطرح الكسي، كطرح غير عقلاني.

يقول الأوراعي في فصل "تعلق النحو بالملكة العقلية"⁽¹⁰⁾، في سبيل الفصل في طبيعة الفرضية الأساس، المتحركة في بناء الفكر العربي في حقل علم اللسان: "... الذي يفهم من الفرضية المذكورة، أن قوى النفس الإنسانية في بدء وجودها، خلّوْ إلا من الاستعداد المحض لتحصيل أصول تلك المبادئ التي يتوقف عليها عمل اللسان أو معرفته واكتسابه..."

ضمن هذا النقاش، طرح الباحث فرضية عمل سَمّاها: "إنسان ما قبل اللسان" هي فرضية عمل للأسباب التالية:

كونها تنسجم مع الطرح الكسي، الذي يراه مؤطراً لاشتغالات مفكري العروب في الاكتساب، وفي حصول المعرفة بالموجودات.

التحديد في (أ) يحتاج إلى تدقيق مفاده أن قوى النفس الإنسانية، قد تكون هي مصدر حصول المعرفة، وضمنها المعرفة اللغوية وامتلاك قدرة النحو، وقد يكون العالم الخارجي هو المزود الرئيسي. وفي هذه الحالة أيضاً، يلزم الفصل بين مفهومين طلباً للتدقيق

المذكور، هما: "التعلق"، و"الاستقلال".

ج. "التعلق" معناه أن خصائص الأشياء في العالم الخارجي، تعود إلى ذات القوى النفسية، وكذلك قوانين انتظامها. فالمبادئ والأصول مطبوعة في النفس.

أما "الاستقلال"، فمعناه أن خصائص هذه الأشياء، وقوانينها وعلاقاتها، هي في استقلال عن النفس. أي، أن المعرفة تأتي من العالم الخارجي. في حين، تكون النفس مهيأة بذاتها لتكتسبها.

"إنسان ما قبل اللسان"، في إطار الطرح الكسبي القائم على فرضية استقلال المعارف بخصائصها، وفرضية القوى المهيأة بذاتها لاكتساب المعارف بما فيها اللغة، هو وصف له بعض الاستلزامات في مجال المعرفة باللغة، واكتساب نحوها ومعجمها. وله نتائج من زاوية التصور العربي للموضوع وتأصيله.

إذا كان النحو هو مجموع القواعد، التي تمكن المتكلم من إنجاز القول الحسن السليم، فإن أشكاله ومظاهره تسعى إلى وصف معرفة هذا المتكلم بلغته، وقدرته على فهمها. ومن ثم، فإن امتلاك قدرة نحوية لا بد أن يتقدمها التهيئ والتحضير بشكل ما من الأشكال. وهذا هو الاكتساب.

يبقى أن نشير، إلى أن الأوراعي قد ناقش أيضا، كيفية انتقال الفرد إلى بناء النحو، الذي سيعمله في إنتاج الأبنية والصُّور القولية، بهدف الإبلاغ والإفهام.

2-2- بعض خصائص الاكتساب في النظريات الحديثة.

تقف النظريات، في أمر الاكتساب اللغوي، بين خيارين معروفين:

نظرية تدرس النمو وتراقب السلوك، وضمنه اللغة، بإقصاء كل عودة إلى الحالات الذهنية. وبالمقابل، تبحث في عقد صلات بين المثيرات الخارجية وبين السلوك.

نظرية عقلانية، تطورت في إطار ما يعرف بـ: "الثورة المعرفية"، تتصور الحديث

حول اللغة مُنصباً على الذهن، وأن هناك ملكة نوعية للذهن هي المسؤولة عن استعمال واكتساب اللغة.

هذا النوع من التّقابل الافتراضي، كانت له نتائج مهمة حول مشكل التعلّم والاكتساب. إذ دفع إلى بحث طرق معالجة المعلومات والتمثيلات المرتبطة باللغة، خصوصاً في جانب الخيار الثاني العقلاني، وهو الذي سنقف عنده.

2-2-1- نتائج الثورة المعرفية والنحو التوليدي.

ذكر تشومسكي في مقاله: "حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة" كيف أن أسئلة اللغة كانت دائماً مركزية، وأنه كان لها جذور في مجالات فكرية أخرى، ولا سيما المجال المعرفي (Cognition).

إن معالجة اللغة، في ضوء المقاربات اللسانية الحديثة، ساهم في تقريب مجال دراستها من مجالات علوم الطبيعة وعلم النفس، وسرّع في تقديم عدد من الطروحات، وفي بناء النظرية اللغوية العلمية. وهي النظرية التي استبعدت المبادئ الغريبة غير العقلانية، كالمبادئ السلوكية مثلاً.

لقد شرعت النظرية اللسانية، في صياغة مبادئ تدخل ضمن التفسيرات العلمية للظواهر المدروسة، واستند العمل التحضيري في معالجتها، إلى الافتراضات الرياضية والمعرفية، وإلى تزويد الواصف بأدوات العمل المنهجية والنظرية. وكان هذا مما أفضى إلى طرح التصور التوليدي، في الخمسينات من القرن الماضي.

الاكتساب بوصفه قضية، يتدخل فيها اللغوي النفسي والمعرفي، استفاد من نتائج الثورة المعرفية.

يقول تشومسكي إن ما نسميه بالثورة المعرفية، هو مجال يبحث في الحالات الذهنية المتعلقة بأمور الفكر، والتنبؤ، والإدراك، والتعلّم، ثم الحركة. إنها تتصور الذهن كآلة، تعالج المعلومة التي هي مجموعة من التمثيلات المجردة، ثم تعمل على تطبيق حسابات عليها.

مشكل "التعلّم" عند تشومسكي (1987)⁽¹¹⁾، يتحول إلى افتراض وجود جهاز بمواصفات معينة. هذا الجهاز، يتلقى إشارات حسية تؤدي إلى تغييرات على مستوى حالة الذهن / الدماغ، وهناك يتم الالتقاء بين الذهني والمعرفي.

هناك بعض الإشارات في هذا الإطار، بالنسبة للاكتساب تنظمها كالتالي: الطفل الذي لم يتعرض لأية معرفة لغوية محددة، لا يمكنه أن يقوم بأي سلوك لغوي. حين يتم التعامل مع وقائع لغوية معينة، يخضع الذهن لتغييرات دالة. وهذا ما يؤهل الطفل لفهم وتكلم لغة معينة.

من الخطأ التنبؤ بما سيقوله الطفل، ولو بنوع من الاحتمال، اعتمادا فقط على المعطيات الحسية التي قادت إلى معرفته باللغة.

إن النتائج التي بلغها النحو التوليدي، في مقارنته لقضايا اللغة وضمنها الاكتساب، انطلقت وظهرت منذ أن تصور النحو، نظاما مكونا يصف ويفسر ما هو مثبت في الذهن/الدماغ، وما يقبل الاستعمال إلى ما لا نهاية.

لقد كانت اللغة، في الطرح التوليدي، مرآة للدماغ، تعكس خصائصه الأساسية، وتعبّر عن عملياته في التوليد والمعالجة. ثم عرف المجال اللغوي تطورا عميقا، تم فيه توسيع وإغناء التصورات التقليدية، في ضوء النظريات الرياضية والحاسوبية.

2-2-2- إشكالات رئيسية في الاكتساب.

استخلص تشومسكي، من نتائج الثورة المعرفية، أن إشكالات الاكتساب الرئيسية يمكن تنظيمها في أربع إشكالات هي: الإشكال الأول: النحو نظرية للغة.

في هذا الإشكال، تساءل تشومسكي عن طبيعة نظام المعرفة، المثبت في دماغ إنسان يتكلم ويفهم اللغة. ويجب بأن النحو -التوليدي- نظرية صريحة للغة، بالمعنى الذي

(11) انظر مقاله: حول طبيعة واستعمال واكتساب اللغة، منشور بالفرنسية في ترجمة بولوك.

نعتبر فيه الكيمياء نظرية لأشياء العالم الخارجي الفيزيائي. إذ يقوم بوصف المبادئ العميقة، وله تنبؤات تجريبية.

الإشكال الثاني: اللغة نظام معرفي.

في هذا الإشكال، تسأل الباحثة عن الطريقة التي تستعمل بها اللغة في عملية التفكير وفي عملية التعبير عن الفكر. ويجب بأن اللغة نظام معرفي مثبت في الذهن / الدماغ، وأن النحو - التوليدي - هو الذي يحدده. الإشكال الثالث: اللغة تعود إلى أنظمة عصبية.

هذا الإشكال يتلخص في كشف طبيعة الميكانيزمات، التي تقوم عليها الخصائص المجردة للغة، وكذا آليات استعمالها. وفيه يركز تشومسكي على أهمية معرفة الميكانيزمات العصبية التي تدخل في تمثيل اللغة، ومعرفة الميكانيزمات المتعلقة بالأنظمة التي تتم دَخلَتُها وتطبيقها.

الإشكال الرابع: الاكتساب نظام معرفي ونظام للمعالجة.

في جوابه عن سؤال الكيفية التي يتم بها الاكتساب اللغوي، وكيفية الاستعمال، انطلق تشومسكي من الإشكال الجوهرى المعروف بـ "مشكل أفلاطون"، الذي يمكن تلخيصه كالتالي: كيف نعرف كماً هائلاً وعنيًا، مع أن تجربتنا فقيرة؟

لقد نظر تشومسكي إلى قضية الاكتساب من زاوية وجود "تداعيات" كواقع داخلي. وقد اقترح أن يتم الاهتمام بالميكانيزمات التي تحوّل هذه التداعيات.

إنه يعتبر ذلك كمحدد للجينات الوراثية التي تحدد الحالة البدئية للملكة اللغوية. ويقول: إننا لا نعرف أي شيء عن تلك الميكانيزمات، لكن الجميع مقتنع بأن هذه هي الطريقة التي يجب بها التفكير في الموضوع.

الاكتساب في المشروع التوليدي، بوصفه نظرية حديثة، يبدأ من الدماغ الذي هو محلّ مبادئ اللغة الأولى. في حين تقوم التجربة - في المحيط - بإثارة هذه المبادئ، كي

تصبح في متناول الاستعمال.

3 - اكتساب المعجم والمعجم الذهني.

3-1- ملاحظات أولى:

افترض في عدد من الدراسات⁽¹²⁾، أن كل متكلم بلغة معينة تكون لديه معلومات مفصلة حول مفردات هذه اللغة، وأنه يجب على كل نظرية لغوية أن تعكس هذا الأمر. لذلك، نجد أن نظرية اللغة تتضمن، من بين ما تتضمنه من مكونات، المكون المعجمي الذي توكل إليه عملية البث في خصائص المفردات، في إطارها وفي فراديتها وكذا إنتاجيتها للمعاني والدلالات.

في هذا الإطار، لاحظ كل من تشومسكي ولا يسنك (1991)⁽¹³⁾ أن المعجم هو بمثابة مستودع أو مخزون للغة. وأن خصائص المفردات فيه، تتوزعها مستويات النحو من صوارة، وصرافة، وتركيب، ودلالة، واستعمال أو تداول. وخصوصا خصائص المفردات الانتقائية الدلالية، والخصائص المحورية للرؤوس المعجمية من: أفعال، وأسماء، وصفات، إضافة إلى ترخيصاتها.

لقد تطور البحث في المعجم في السنوات الأخيرة، خصوصا في المرجعية التوليدية والمرجعية المعرفية. مما ساهم في توضيح العلاقة بين مجال الدراسة المعجمية النظرية (Lexicology)، ومجال الصناعة المعجمية⁽¹⁴⁾ (Lexicography). متجاوزا بذلك، الطروحات التقليدية التي كانت تعتبره ملحقا للنحو (Appendix). وأيضا، الطروحات

(12) الملاحظات في هذه الفقرة، اعتمدنا فيها أساسا عمل م. مككـرتي (1990)، الفصل الثالث، ص. 48/34.

(13) « Principles and parameters theory ».

(14) "المعجمية" مصطلح من اقتراح عبد الغني أبو العزم. انظر مقاله : تطور المصطلحات المعجمية والمعجمية وإشكالية الوضع والترجمة، مجلة "الدراسات المعجمية"، عدد 1، يناير 2000.

التي كانت تعتبره فرعاً من التركيب، شأنه شأن "مبدأ المعجّمة" (Lexicalisation) (principale)، الذي كان يلحق المفردات تحت العجز المناسبة المشرفة على المستويات المقولية.

لم يعد المعجم أيضاً، مجرد لائحة (List) من الاستثناءات، كما كانت تتصوره بعض هذه الدراسات. بل بحث أعمال في ضرورة ربطه بمبادئ عامة. تنقسم المبادئ، في هذا المستوى، إلى صنفين: مبادئ تعود إلى النحو العام (UG)، ثم مبادئ أخرى مرتبطة باللغات ووسائطها الخاصة.

المهم في إجراء موقعة المكون المعجمي، وتوضيح علاقاته بباقي مستويات النحو، الإقرار بتدخله فيها جميعاً. بحيث يسهم التدقيق في رسم حدوده، في تقلص تنظيم كاف للنحو. ولا سيما إذا تعلق الأمر بالاكتساب، وخصائصه العامة.

نتساءل هنا: هل هناك وسائط يتم اكتسابها أثناء التعامل مع وحدات المعجم، من نوع اكتساب الصرفيات الوظيفية؟ أو اكتساب قواعد التركيب التي تضبط اجتياز الجملة؟ ثم ما علاقة الاكتساب اللغوي العادي، الذي يمر الطفل بمراحله، باكتساب التمثيلات الدلالية؟ (15).

لتوضيح بعض هذه الجوانب، نلخص بعض النتائج المتفرقة لنمو قدرة الطفل، التركيبية والدلالية.

3-2- بعض الوسائط وقيمتها.

هل نجح المظهر اللغوي في تحقيق الانسجام المطلوب بين نظام القواعد المستتبطن، ونظام المعالجة وإنجاز المعطيات؟

(15) للنظر في بعض خصائص التمثيلات الدلالية وعلاقتها بالاكتساب، يمكن اعتماد نتائج البحث في الغالي أحرشاو (1993).

يقتضي الجواب الكافي لمثل هذا السؤال، وجود نظرية للتعلّم تضيء الجوانب المجردة لمشكل الاكتساب. وهذا ما حاولت الطروحات اللسانية، والدراسات التي اشتغلت على الاكتساب من وجهة نظر علم النفس اللغوي إن تجيب عليه.

لقد حاول تشومسكي، اعتماداً على منطلقاته النظرية، ربط صلة واضحة بين القدرة اللغوية والإنجاز، معتبراً الملكة اللغوية عند الفرد البالغ، مجالاً للوصف، ومظهرها للتوليد اللغوي. وذلك سعياً إلى رسم خصائص النحو الكلي الفطري، الذي اعتبره نسقاً من المبادئ المثبت في الدماغ⁽¹⁶⁾.

لاحظت بعض الدراسات، في هذا الإطار، أن الطفل، لا يُقلد ما يقوله الآباء والآخرون من حوله، مادام محيطه يُحفل بمعطيات متناقضة ومُعقدة.

ثم، لو نسلم بأن الطفل، يعمل فقط على تقليد ما يسمعه، لما كان بإمكاننا التنبؤ بالطريقة التي سَينجز بها جملاً، لم يسبق له أن سمعها من قبل.

يتغيّر النحو في كل مرحلة من مراحل نمو الطفل، حتى يَستقر على حالة نهائية مع النضج. فلقد لوحظ أن الطفل يُعامل البني التركيبية في لغته بالتدرّج. ومن ذلك مثلاً، بنية⁽¹⁷⁾ النفي.

لننظر على هذه الجملة:

I want some food

No want some food

No/don't want some food

نفي (1)

نفي (2)

(16) هذا النسق تنوزع خصائصه العامة، في موضوع الاكتساب، الكليات واختلافات اللغات.
(17) في تعامله مع وسيط الاستفهام، لوحظ أن الطفل المغربي يتعلّم في البداية، أن هذا الوسيط يكون في صدر الجملة :

- علاش بكييتي ؟

- فين مشات ماما ؟

I don't want no food

(3) نفى

I don't want any food

(4) نفى

هذه الجمل، تفيد من جهة أن الطفل يتدرج في استعمال جمل أكثر تعقيدا. ومن جهة أخرى، تفيد بأنه لا يفعل ذلك دون تصنيفه لأداة النفي في حيزها التركيبي. بالنسبة لاكتساب التمثيلات الدلالية، فإن الافتراض المرافق لها يعتبر الطفل لا يبلغها إلا حينما يصل إلى الربط بين إنجازه اللفظي وتمثلاته المعرفية. في هذا الإطار، حصرت المعالجات، التي نظرت إلى هذا الجانب، النقاش بين اتجاهات ثلاثة⁽¹⁸⁾.

اتجاه نفسي من أقطابه يياجي.

اتجاه لساني عند تشومسكي أساسا.

اتجاه نفس-لساني، تفرع إلى: اتجاه معرفي مع هـ. سانكلير، وإ.ف. كلارك.

واتجاه ثاني تجريبي مع ك. نيلسون.

3-3- المعجم الذهني وعلاقة اللغة بالذاكرة.

إن تحكّم الطفل وتطوره في صياغة الأساليب اللغوية، يعود إلى نوعية النحو الذي يجده في محيطه، ثم إلى اندفاعه إلى التواصل بحكم رغبته النوعية في المطابقة بين المظاهر الخارجية المدركة، وصورها الداخلية التي تحدّسها تمثلاته الباطنة. لكن، كيف يعامل الطفل مفردات لغته قبل تركيبها في جمل وعبارات؟ ثم ما نوع العمليات التي يقوم بها

(18) الغالي أحرشوا (1993).

الاتجاه النفسي، يعتبر اللغة مظهرا للنشاط التمثيلي. والاتجاه اللساني يعتبرها فطرة مبرجة، سيرا في الاتجاه الذي رسمه تصور ديكارت في القرن 17. والذي يعتبر دماغ الفرد متوفرا على المبادئ الأولى (في الهندسة واللغة... إلخ). أما الاتجاه الثالث، في شقه التجريبي. فيعتبر أن الدماغ، يتلقى الانطباعات من العالم الخارجي، فيشكل ترابطات على أساسها.

ذهنه أثناء المعالجة ؟

لتقديم إجابات لمثل هذه الأسئلة، نعتمد بعض نتائج البحث حول المعجم الذهني، في المقاربة التي قدّمها م. مككرتي (1990).

3-3-1- حالات الذّهن مع اللغة.

في بداية مناقشته لعلاقة اللغة بالذاكرة (الذّهن)، يشير م. مككرتي (1990)⁽¹⁹⁾ قضية أساسية، يلخصها بأن معرفتنا وإدراكنا للغة، هي نسبياً شحّة. وأنه، في أحسن الأحوال، يمكننا فقط إنتاج أشكال جزئية، أو القيام ببعض التأمّلات، وصياغة استعارات حول الأشياء.

هذا، في نفس الوقت الذي نلاحظ فيه أن سمات اللغات تتطور باستمرار، وكذلك خصائصها، والسلوك اللغوي العام. مما يمنحنا بعض التلميحات، منها التساؤل: كيف يمكن للعقل أو الذاكرة أن تتعامل مع شيء ضخم، وواسع جداً هو معجم اللغة؟

يلاحظ في هذا الإطار، أن للذهن حالات تتوزع بين:

الدّخل (في معنى الشّحن أو التزويد بالمعلومات).

التخزين (في معنى تنظيم أو فقط ترك المعلومات في مستودع).

ج. الاسترجاع (في معنى وجود تقنية أو ملكة الاسترداد).

المفهوم الأول يجعل، اللغة ومعناها، مكتوبين معاً. والمعنى هنا هو كل المعلومات حول الكلمات: نطقها، وخصائصها الاشتقاقية، وطبقته المقولية... إلخ. وهو ما يجعل البحث عنها يتم بأقل كلفة.

المفهوم الثاني، معناه أن اللغة تكون محفوظة، وأنها ليست مهمة.

أما المفهوم الثالث، فيعني أن اللغة تُسترجع أو تعود للذاكرة حين يطلبها الاستعمال.

(19) Vocabulary, p.34.

ملحوظة: بالنسبة للأطفال الذين يتعلمون لغة أمهم، يكون الدخل اللساني في سنتهم الأولى هو عمليا وفعليا، عبارة عن تدفق صوتي فقط.

4 - الاكتساب وعوائق تعليم اللغة.

ذكرنا أعلاه، أن لقضية الاكتساب ارتباطات وثيقة باللغة وبأشكال تعلّمها. ثم اتضح في الفقرات التفصيلية، أن مقارنته تستدعي اعتبار مجموعة من مجالات البحث، واستثمار نتائجها، بهدف (تطويقه) وفهمه - نظريا وعمليا-، وأيضا للتدخل ودرء أخطاره وسلبياته، على مستوى تعليم اللغة. خصوصا اللغة 2 وعلاقتها باللغة 1.

صحيح أن المبادئ المعرفية العامة، والمبادئ الخاصة باللغة، تعلق درواهاما في تكوين الطفل، وأنها مؤثرة في فطرته اللغوية. لكن المشاكل تظهر في مراحل التعلم، وتصاحب الطفل أثناء امتلاكه لأدوات النحو الموجهة لإنجازاته. مع العلم انه من المسلّم، أن الكلام الذي يسمعه الطفل، لا يمكن أن يكون أصلا للقدرة اللغوية عنده⁽²⁰⁾.

لقد طرح الفاسي الفهري (1999)⁽²¹⁾، مسألة الاكتساب في إطار التعليم التدريجي للغة، مشيرا إلى المشاكل التي يطرحها تعليم العربية للطفل المغربي، ويطرحها الازدواج اللغوي بين اللغة العامية -الدارجة المغربية مثلا- واللغة الفصيحة: اللغة الوطنية الرسمية التي هي كما يقول الباحث: لغة هوية وفكر وثقافة.

لقد أكد الباحث كثيرا على دور المدرسة في توفير الخطوط الذهنية، والمادية والاتصالية، لإنجاح اكتساب اللغة واللغات حتى تكون اللغة أداة تفكير وأداة اتصال.

(20) سلوين (1979) و(1939)، ص. 100.

(21) أنظر الفاسي الفهري (1999)، ص. 101.

4-1- الوضع اللغوي في المغرب.

ليس جديداً أن تذكر أن الوضع اللغوي بالمغرب⁽²²⁾، يطرح كثيراً من الأسئلة يبررها التداخل بين عدد من الأنساق. ورغم أن هذا البلد العربي، ظل محتفظاً بكثير من مظاهر الأصالة العربية القديمة، فإن احتفاظه هذا لم يكن لينفي التأثيرات اللغوية الأمازيغية والأجنبية، التي تعاقبت على ألسنته.

يكتسب الطفل المغربي -يقول الفاسي الفهري- لهجة عريضة عامية، أو لهجة أمازيغية، في السنتين أو ثلاث السنوات الأولى (قل أن تجد الروض أو دار الحضانة يُسهم في تعليم الفصيحة).

وفي المدارس الحكومية، يبدأ الطفل في تعلّم الفصيحة، لكن المعلم الملقن سيجتهد في توظيف العامية إنجاحاً لدوره التربوي. وهناك مشاكل أخرى ستظهر حين سيجد الطفل المغربي نفسه مضطراً -لأسباب تربوية توجيهية- لتعلّم لغة (ثالثة) هي الفرنسية. كل هذا الوضع، يخلق حالة معقدة عند الطفل المغربي، لعل من سماتها الرئيسية عدم اكتمال أو إنضاج لأي نظام من هذه الأنظمة اللسانية⁽²³⁾.

خاتمة:

حين نصف الذاكرة الإنسانية بأنها "طبيعية"، فنحن لا نفصل -إذاك- في مدى ملاءمتها بين عناصر الدّخل، أو التزويد بالمعلومات، وبين قدرتها على تنظيم الكمّ المخزّن، أو قدرتها على التحليل والمعالجة والاقتصاد فيها.

ورغم أن هناك عوامل عديدة تؤثر على الذاكرة، إيجاباً وسلباً، فإن الحالة التي تكون عليها أثناء إنجاز اللغة، أمر مهم ومعقد. ومن الضروري اعتباره، خصوصاً أثناء

(22) بعض الملاحظات حول الوضع اللغوي بالمغرب، تضمنها مقالنا لسنة (1994)، المعنون: بناء الكلمة أم بناء المعنى أم هما معا؟.

(23) انظر الفاسي الفهري، ن.م. ص. 9.

تعلّم اللغة 1 واللغة 2 وربما اللغة الأجنبية... وهكذا.

لقد سعينا في الفقرات السابقة إلى توضيح بعض أسباب حدوث الاكتساب معاً، من وجهة نظر لسانية، تراثية وحديثة. وأحياناً من وجهة نظر بيولوجية. كذلك، أثّرنا بعض خصائصه من جانب احتفاظ الذاكرة بالمعلومات أو استرجاعها في إطار ما يعرف ب: "المعجم الذهني".

ونريد، في الختام، التأكيد على بعض النقاط، وهي:
ضرورة بحث مقاييس عمليات الإبداع، الذي تقوم به الذاكرة في اللغة الوطنية والمحلية.

ضرورة اعتبار الفروق بين اللغة 1 واللغة 2 وربما اللغة 3... في سبيل الكشف عن خصائص الجزء الفطري الكلّي، قبل عمليات الاكتساب.
تشجيع البحوث في أمور الاكتساب، من الوجهة اللسانية واللسانية النفسية.

المراجع

أولاً: بالعربية

- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار العودة، بيروت، 1988.
- أبو العزم، عبد الغني (2002)، "المصطلحات المعجمية وإشكالية الوضع والترجمة"، مجلة "الدراسات المعجمية"، عدد 1، يناير 2002.
- ألبير، نصري نادر، ابن سينا والنفس البشرية، سلسلة النصوص الفلسفية، منشورات عويدات، بيروت.
- الأوراعي، محمد، (1987)، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، دار الكلام للنشر والتوزيع، (1987).
- باش، يوسف، (1994)، بناء الكلمة، أم بناء المعنى، أم هما معا؟ عرض قدم في أشغال المائدة المستديرة، المنعقدة في مراكش 3-6 فبراير (1994)، حول: "علاقة اللغة العربية باللهجات وبالعامية في المغرب". تنظيم مؤسسة كونراد أديناور، وجمعية اللسانيات بالمغرب. (العرض قيد الطبع بمجلة كلية الآداب ببني ملال).
- باش، يوسف، (2002)، قضايا في تنظيم مداخل القاموس، عرض قدم في ندوة: "تعليم اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد"، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ماي 2002.
- جحفة، عبد المجيد، (2000)، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار تبقال، البيضاء.
- الحمازوي، محمد رشاد، المعجم العربي، إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة، تونس بدون

تاريخ.

- الفاسي الفهري، عبد القادر، (1986)، المعجم العربي، دار تبال، البيضاء.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، (1999)، اكتساب اللغة العربية والتعلم اللغوي المتعدد المجلد 4، عدد 1-2، دجنبر، 1999.
- المسدي، عبد السلام، (1986)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط.2، 1986.

ثانياً: بالأجنبية

- Aitchison , J .(1994), *Wordsand the mind* ,Cambridge Massachusetts ,U .S.A.
- Chomsky, N .(1987), “*Surla nature , l’utilisation et l’acquisition du langage*”.
- Trad, J ,Y. Pollock .dans : *Recherches Linguistiques de Vincennes*.
- Chomsky, N . & H. Lasnik (1991), “*principles and parameters theory* “.
- McCarthy, M . (1990), *Vocabulary*,Oxford University Press .
- Slobin, D.I. (1979), (1939), *Psycholinguistics*, Copy right, Foresmanand compagny.